وما سواها (401)

الخـــــــوف المقيـــــــم!!

د. صادق السامرائي- الطب النفساني، العراق / أمريكا

الخوف شعور ينتاب الشخص بسبب خطر حقيقي أو متخيل فينبه الحواس ويستحضر الحذر , ويبدو أن ما يدور في رحاب مجتمعاتنا محاط بما يستدعيه الخوف من إجراءات وسلوكيات تسببت بتداعيات مخيفة.

وهذه بعض الإطلالات على مملكة خوفنا:

أولا: الخوف من الجرأة!!

واقعنا يبدو لمن يتابعه في أزمة الخوف من الجرأة , فالجريئ منبوذ , والخَنوع والتابع مرغوب؟

إنها حقائق قاسية فاعلة في مجتمعاتنا وأملت علينا أن نستكين ونقنط , ونتوهم بضعفنا وبإرادتنا المسلوبة.

القول الجريئ من أكبر الكبائر , ولهذا فالحقيقة مدفونة في أكوام هائلة من الأضاليل , والكَذوب سلطان مكين.

ويموجب هذه العاهة , خطاباتنا بأنواعها إفتراءات لصالح مآرب سيئة , ولا يجرؤ أحد أن يواجهها لأن العصا لمن عصا , والخروج عن سلطة السمع والطاعة يعني النهاية الحتمية المقرونة بالملامة القاسية.

المواجهة خاسرة والمخانعة رابحة , فالحياة إخضع وإتبع وكن رقما في قطيع المعمعة.

فهل رأيتم كلاما جريئا يقترب منه القراء؟

هل رأيتم كلامَ حقيقة يحظى بالنشر والتسويق؟

الكل يخشى الإقتراب من الضوء , ويستلطف العيش في الظلام والكهوف والإندساس في غوابر الأزمان , التي صارت مقدسة ووسيلة للدحرجة إلى وادي الفناء اللذيذ.

مَن يقدر على رفع راية التحدي , والكلام بلسان إرادة الحياة؟

لا أحد , وإن وجد فهو مخطوف مغيب مقتول!!

وبهذه الأساليب المتوحشة إنصاعت الجموع للأحزان والدموع !!

فما قيمة الأقلام وما هو دور المثقف المنكوب المنبوذ إذا قال صدقا!!

فلا مكان للحياة الحرة الكريمة , ولشرع الغاب أن يهيمن ويديم الوجيع والأنين واللطم , والقسوة على الذات المنكوبة بالصمت المخيف وبالإستعباد اللطيف.

فما أكثر التجار بإسم الساميات ورموز الكرامة الإنسانية!!

و" مَن يتهيب صعود الجبال...يعش أبد الدهر بين الحفر"!!

الخوف شعور ينتاب الشخص بسبب خطر حقيقي أو متخيل فينبه الحواس ويستحضر الحذر , ويبدو أن ما يدور في رحاب مجتمعاتنا محاط بما يستدعيه الخوف من إجراءات وسلوكيات تسببت بتداعيات مخيفة.

واقعنا يبدو لمن يتابعه في أزمة الخوف من الجرأة , فالجريئ منبوذ , والخَنوع والتابع مرغوب؟

القول الجريئ من أكبر الكبائر , ولهذا فالحقيقة مدفونة في أكوام هائلة من الأضاليل , والكَذوب سلطان مكين

ويموجب هذه العاهة , خطاباتنا بأنواعها إفتراءات لصالح مآرب سيئة , ولا يجرؤ أحد أن يواجهها لأن العصا لمن

ثانيا: الخوف من الشعب!!

كوريا الجنوبية قدمت مثالا عجيبا عن الحرية والكرامة الإنسانية ومعاني الديمقراطية , فرئيسها المنتخب تحسب من وجود قوة مضادة تعمل لصالح كوريا الشمالية , فإجتهد حرصا على السلامة الوطنية وأعلن حالة الطوارئ التي إستمرت لأقل من يوم , بعد أن رفضها البرلمان.

لم يعاقب أحدا أو يقتل مواطنا , لكن الشعب رأى فيما أقدم عليه إهانة له وإنتهاكا للحرية والديمقراطية , فتظاهر ضده وطالب بعزله لأنه أخل بإحترامه لإرادة شعبه الحر الأبي , وما إستنفر القوات للدفاع عن نفسه , بل رضي بقرار السلطة القضائية وإحترم الشعب , وأذعن لإرادته , وحُكم عليه بالسجن المؤبد بعد حين!!.

فهل يوجد مثل هذا السلوك في بلداننا؟

جرى ذلك في كوريا الجنوبية لأنها محكومة بمنطق الدولة , لا بمنطق الكرسي المهيمن على أنظمة حكمنا والمستلب لإرادات الأجيال.

منطق الدولة يهتم بالشعب وتلبية حاجاته وخدمته فيوفر له الحياة الحرة الكريمة , ومنطق الكرسي يحسب المواطنين أرقاما لا قيمة لها , بل لوجودهم أضرار جسيمة على الكرسي.

هل تستوعب أنظمة حكم الأمة منطق الدولة؟

منذ تأسيس دولها , وهي تحت رحمة الطغيان والإستبداد والحكم الفردي والحزبي والعائلي والوراثي , والقليل منها إستوعبت مفهوم الدولة وسعى لبنائها وفقا لمعطيات زمانها , وأكثرها أنظمة تدين بمنطق الكرسي الذي يعادي حتى نفسه , ولهذا كانت في مسيرات صاعد نازل , وينطبق عليها قول الشاعر:

"متى يبلغ البنيان يوما تمامه...إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم"

فما وجدنا فيها بناءً يساند بناءً , بل هدم وتخريب , ومحاولات لمحق ما أوجده السابق , وأراده اللاحق , الذي سيمحقه القادم بعده أو الذي إنقض عليه وإفترسه.

وترددت على مسامع الأجيال, النظام السابق, النظام البائد, النظام العميل, وغيرها من المسميات المتكررة.

فلن يكون في دولنا نظام حكم كما في كوريا الجنوبية , ولو واجه أي رئيس ما واجهه رئيسها , لسالت دماء الأبرياء , وصار الحكم بالحديد والنار , وكل مَن يرفع صوته ضد الظلم خائن يستوجب الإعدام.

فهل شعوبنا شعوب وشعوبهم شعوب؟!!

ثالثا: الخوف من التعليق!!

لو تحدثت بجرأة عن أية حالة , فأنها ستواجَه بعدم الإكتراث , لأن الخوف سلطان جائر , وعيون الرقباء والذباب الإليكتروني , يراقبون النشاطات على صفحات التواصل الإجتماعي.

فإذا نقرت علامة لايك على المنشور فلربما تضع نفسك في ورطة كبيرة , وقد تنتهي في غياهب التغييب , وتحسب من المعارضين , أو من أعداء الكراسي والدين.

ليجرب واحدنا وينشر موضوعا جريئا , أي يعبر عن الحقيقة مباشرة وبلا غبار , ويصف الحالة ويرفضها لأنها تمتهن أبسط حقوق الإنسان , فسيواجَه بالتجاهل والإهمال.

فأين حرية التعبير عن الرأي؟

وأين دور الكلمة في الحياة؟

إنها القوة , وكل شيئ دونها بكثير , فالأقوياء يتسيّدون , وظلمهم عدل وإنصاف وخير للعالمين , فعليك أن تخنع وتخضع , وبالسمع والطاعة تدين!!

إنها حكاية الديمقراطية المفروضة على الجائعين والمقهورين والمحرومين , والمرعوبين من غياب السلطة والدستور والقانون , وتجدهم يتحركون في غاب مدنهم , ومخالب وأنياب المفترسين تحاصرهم.

فهل وجدتم جائعا ومحروما , تعنيه حرية التعبير عن الرأي , وهو لا يجد لقمة تملأ فمه المحروم من الطعام ؟

علما , والخروج عن سلطة السمع والطاعة يعني النهاية الحتمية المقرونة بالملامة القاسية

الكل يخشى الإقتراب من الضوء , ويستلطف العيش في الظلام والكهوف والإندساس في نوابر الأزمان , التي صارت مقدسة ووسيلة للدحرجة إلى وادي الفناء اللذيذ.

فما أكثر التجار بإسم السماوات ورموز الكرامة الإنسانية!!

و" مَن يتهيب صعود الجبال...يعش أبد الدهر بين الحفر"!!

منطق الدولة يهتم بالشعب وتلبية حاجاته وخدمته فيوفر له الحياة الحرة الكريمة , ومنطق الكرسي يحسب المواطنين أرقاما لا قيمة لها , بل لوجودهم أضرار جسيمة على الكرسي.

متى يبلغ البنيان يوما تمامه...إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم"

فما وجدنا فيها بناءً يساند بناءً , بل هدم وتخريب , ومحاولات لمحق ما أوجده السابق , وأراده اللاحق , الذي سيمحقه القادم بعده أو الذي إنقض

عليه وإفترسه

الكراسي في نعيم وترف , والناس في حرمان وقرف!!

وكل مَن عليها جاع , يا أمة الثراء والسباع!!

رابعا: الخوف القهار!!

يعاتبني بقوله: كتبت عنها قصيدة رائعة ولم يعلق عليها أحد من أهاليها!!

فقلت له: كم كتبت عنها , وواجهت كتاباتي التجاهل الشديد!!

قال: لماذا؟

قلت: إنه الخوف القهار!!

قال: كيف يكون ذلك؟

قلت: الخوف يمنعني من الجواب!!

إتصل بي أحدهم ليقول: عمي محد يكدر يفك حلكه , كلمن يصيح ياروحي!!

قلت: شلون عيشة هاي؟

قال: غصبن على اليرضه والمايرضه , طشارها ماله والي!!

إحترت في الأمر , وإعتذرت من معاتبي , وقلت: كلنا في الهوى سوى!!

وأضفت: لا تيأس إن غدا لناظره قريب!!

فقال: على هالرنة طحينج ناعم!!

هذه نكبة مدينة يُراد إخراجها من ذاتها وموضوعها , وإلغاء دورها ووجودها , والإمعان بقهرها والقسوة على أهلها , وحرمانهم من حقوقهم الإنسانية , ومَن يطالب بحقه , تفترسه غياهب المجهول , ويتسلى ذويه بمفردة "مغيّب" , لتمنحهم أملا مغشوشا , والمعني أكله التراب!!

إياك أن تقول كلمة حق , أو تطالب بحقوقك , وتسأل عن أحوال المدينة , فهذا من المحرمات , وخط أحمر يرديك في خنادق العذاب الشنيع.

فما أشجعنا على بعضنا , وما أوفانا وأصدقنا وأخلصنا في تنفيذ أجندات الآخرين , وكأننا من المغفلين الذين يعمهون بلا بصائر ولا عيون , والكل يسعى إلى حتفه المرسوم!!

فلا تسمع ولا ترى ولا تنطق , لتبقى مرهونا فوق تراب الهوان!!

فإذا نقرت علامة لايك على المنشور فلربما تضع نفسك في ورطة كبيرة , وقد تنتهي في غياهب التغييب , وتحسب من المعارضين , أو من أعداء الكراسي والدين.

فهل وجدتم جائعا ومحروما , تعنيه حرية التعبير عن الرأي , وهو لا يجد لقمة تملأ فمه المحروم من الطعام ؟

فما أشجعنا على بعضنا , وما أوفانا وأصدقنا وأخلصنا في تنفيذ أجندات الآخرين , وكأننا من المغفلين الذين يعمهون بلا بصائر ولا عيون , والكل يسعى إلى حتفه المرسوم!!

خامسا: الخوفقراطية!!

الحكم بالخوف من بطش السلطات القابضة على مصير البلاد والعباد , أسلوب قديم , منذ تأسيس الدول , فكان الحاكم إلها , أو على صلة بالآلهة , ويحاط بهالة القوة المطلقة والرهبة من نظراته وحركاته وما ينطق به.

فجوهر نظام الحكم هو الخوف , وتطور المفهوم , ليتخذ من الدستور والقانون وسائله لتأكيد سلوك الخوف.

فالخوف هو الحاكم الحقيقي في أي دولة حتى اليوم.

والديمقراطيات بجوهرها , أنظمة لتأمين الحياة الحرة الكريمة للمواطنين بالخوف من القيام بعمل مخالف للقانون , مما يتسبب لهم بتداعيات ذات نتائج وخيمة , تصادر حرياتهم , وتقضي على معالم وجودهم.

وتتباين نسبة الخوف بين الديمقراطيات , وآليات التعبير عنه , ففي بعضها التي لا تعرف الديمقراطية , تكون وسائل التخويف متوحشة وقاسية وذات إفتراسية عالية , يتحول فيها الإنسان إلى مجرد رقم لا قيمة له.

وفي الدول المتقدمة ديمقراطيا يكون القانون السيد والسلطان.

وفي المجتمعات التي وفدت إليها الديمقراطية , يتشظى المجتمع وتتسلط فيه إرادة العصابة , التي تتخذ لها عنوانا ومنطوقا مغلفا بدين , أو غيره من الأغلفة اللازمة لإجتذاب الآخرين وصناعة القطيع الخانع.

فجوهر نظام الحكم هو الخوف , وتطور المفهوم , ليتخذ من الدستور والقانون وسائله لتأكيد سلوك الخوف.

الديمقراطيات بجوهرها , أنظمة لتأمين الحياة الحرة الكريمة للمواطنين بالخوف من القيام بعمل مخالف للقانون , مما يتسبب لهم بتداعيات ذات نتائج وخيمة , تصادر

وبهذه الآلية , يتعاظم الخوف وتفقد الدولة قدرتها على فرض إرادتها , وتكون طرفا ضعيفا خاضعا لهيمنة مراكز القوة المتحكمة بالواقع , المشحون بالمخاوف والتوجسات وضياع الأمان.

ولا يمكن لديمقراطية أن تترعرع وتتواصل , إن لم تعمل على تأكيد الخوف من القوانين.

أما المخاوف المتناثرة المتوالدة , فتدمر كل شيئ في المجتمعات التي تنتشر فيها , لأنها ستكون أدوات لتحقيق مطامع القوى الأخرى.

فهل من قدرة على تأكيد هيمنة القانون والخوف منه؟!!

سادسا: الخوف والمدينة!!

وصلناها , بعد سفرة طويلة من بغداد وعبور لسيطرات وسيطرات , وإنتهينا في الروضة التي فيها ثلاثة أئمة , وإذا بنا في مشهد هلع وتربص.

- هيا إسرعوا
- لا نستطيع الذهاب إلى مطعم
- لايوجد فندق ي المدينة
- هيا بنا لنغادر
- الأمان مفقود

هكذا كان قائد حملتنا , ينادي ويَقلق على وجودنا لبضعة ساعات في مدينة , كان الأمان والألفة والنخوة والضيافة من سماتها , خصوصا للزائرين والسائحين , فكيف أزرت بها الأيام وتحولت إلى معسكر ومقام جور وخطف وظلام؟

إنها لحيرة ودهشة مروّعة!!

مَن حول النخلة المعطاء إلى شجرة عاقول؟!!

مَن المسؤول؟!!

مَن يحكم أو يتحكم بالمدينة؟!!

هل توجد حكومة وأجهزة أمن وشرطة؟!!

الخطف مُشاع , والمخطوف مغيّب , وإلى رحمة الله , وفقا لفتاوى أعداء الدين , المتأسدين على الآخرين بإسم الدين!!

وإعتاد الناس على مفردة مغيّب , فيعللون أنفسهم بآمال سرابية , لا وجود لها فوق التراب , والمخطوف أكلته المقابر الجماعية!!

و"قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم "!!

سابعا: التبعية والخوف من المسؤولية!!

المخلوقات تميل للتبعية لتتخلى عن المسؤولية , والبشر فيه رغبة كامنة للتبعية لأن الخوف من المسؤولية يهيمن عليه خصوصا عندما يتعلق الأمر بالغيبية , ولهذا تجده ينصاع لمن يراه يمثل ما يعتقده أو ينتمي إليه , فيعطل عقله ويمضي خلفه.

وهذا السلوك أزلي الإمتداد ومتواصل , فحالما يواجه البشر تساؤلات حول الحياة والموت , يكون تابعا لشخص ما أو قوة معينة يرمي عليه أو عليها المسؤولية , ويحرر نفسه من النتائج المترتبة على سلوكه.

ويعرف هذه الحالة المتاجرون بالدين فيوظفونها بمهارات متراكمة ويستثمرون فيها أعظم الإستثمار , فيتحول البشر في عرفهم إلى بضاعة تدر أرباحا , لأنه وهبهم مصيره وأذعن لإرادتهم ونفذ تعاليمهم ومضى في طريقهم.

حرياتهم , وتقضي على معالم وجودهم

المخلوقات تميل للتبعية لتتخلى عن المسؤولية , والبشر فيه رغبة كامنة للتبعية لأن الخوف من المسؤولية يهيمن عليه خصوصا عندما يتعلق الأمر بالغيبية , ولهذا تجده ينصاع لمن يراه يمثل ما يعتقده أو ينتمي إليه , فيعطل عقله ويمضي خلفه

الحقيقة أن التابع فيه طاقة تشده للتبعية ورغبة ملحة للتجرد من المسؤولية , لأن الجهل عميم والوعي سقيم , وقدرته على التفاعل العقلي ضعيفة , وتجنبه السؤال من أكبر المعضلات التي تقيّده وتمنع عنه المعرفة والتعلم , والوصول إلى أجوبة ذات قيمة ومعنى

إن الدين يدعو للتحرر والإنعتاق من التّبعية والعبودية , ويفرض على البشر تحمل مسؤولية رحلته في الحياة الدنيا , ولهذا فهو معرّض للحساب , فلولا أنه مسؤول لما وجد الحساب , وبالتجرد عن المسؤولية الذاتية والموضوعية , يكون البشر في تعارض مع خالقه , وفي حالة إنكار لمعنى حياته , بل ينتحر بما يقوم به من سلوكيات تجرده من أبسط معاني وجوده

ولذلك فللرموز المتنوعة تابعين خانعين يضحون بأنفسهم في سبيلهم , ليس عن إيمان أو وعي وإدراك , وإنما بسبب الإنتماء العاطفي الأعمى الشديد . الذي يلزمهم بالتحول إلى دمى وبيادق تحركها تلك القوة الرمزية أنّى تشاء.

والحقيقة أن التابع فيه طاقة تشده للتبعية ورغبة ملحة للتجرد من المسؤولية , لأن الجهل عميم والوعي سقيم , وقدرته على التفاعل العقلي ضعيفة , وتجنبه السؤال من أكبر المعضلات التي تقيّده وتمنع عنه المعرفة والتعلم , والوصول إلى أجوبة ذات قيمة ومعنى , فيكون من السهل عليه أن يجد الأجوبة جاهزة أمامه ويمضي مع الكثيرين في ترجمتها , والتعبير عن سلوك " حشر مع الناس عيد".

وقد أشار القرآن إلى هذا السلوك التبعي الأعمى وحذّر منه , ودعى البشر إلى التفكر والتبصر وتحمل المسؤولية المصيرية , لأنه سيكون بعد موته لوحده أمام ربه , ولن يشفع له أي شخص آخر سوى نفسه , وما قدمه في دنياه من أعمال صالحة ومتفقة مع إرادة الله.

ويبدو أن أكثر الذين يستعبدون البشر ويستثمرون بميلهم للتبعية , من الذين لا يؤمنون بما يقولونه ويتظاهرون به , لأنهم لو إمتلكوا وعيا حقيقيا ومعرفة سليمة وعلاقة الخالق بالمخلوق , لترددوا كثيرا وعملوا كأن ربهم يراهم , فتسودهم التقوى والورع , لا كما نشاهدهم برغباتهم الدنيوية المفلوتة , ونفوسهم التي تأمرهم بما يغضب الله ويذل عباده , ويستجلب عليهم الويلات وسوء المصير.

إن الدين يدعو للتحرر والإنعتاق من النبعية والعبودية , ويفرض على البشر تحمل مسؤولية رحلته في الحياة الدنيا , ولهذا فهو معرّض للحساب , فلولا أنه مسؤول لما وجد الحساب , وبالتجرد عن المسؤولية الذاتية والموضوعية , يكون البشر في تعارض مع خالقه , وفي حالة إنكار لمعنى حياته , بل ينتحر بما يقوم به من سلوكيات تجرده من أبسط معاني وجوده.

ولكي يتحرر البشر من التبعية عليه أن يقر بالمسؤولية , ويأخذ على عاتقه العمل على تحرير نفسه من قبضة المتاجرين به , والخروج من كونه بضاعة في سلال المضللين الممعنين بسحقه والإستحواذ على مصيره.

فهل من قدرة على الشعور بالمسؤولية والمواجهة الحقيقية مع إرادة الحياة الإنسانية؟!!

وفي الختام , ما دام الخوف بوصلة تفاعلاتنا فأن المسيرة لن تصل إلى بر الأمان , وسيكون مثواها وادي الضياع والإستلاب والخسران.

فهل لنا أن نطرد آفات الخوف وننتصر على إرادة العدوان؟!!

ومعذرة على إستعمال بعض العبارات باللهجة العراقية الدارجة

لكي يتحرر البشر من التبعية عليه أن يقر بالمسؤولية , ويأخذ على عاتقه العمل على تحرير نفسه من قبضة المتاجرين به , والخروج من كونه بضاعة في سلال المضللين الممعنين بسحقه والإستحواذ على مصيره

في الختام , ما دام الخوف بوصلة تفاعلاتنا فأن المسيرة لن تصل إلى بر الأمان , وسيكون مثواها وادي الضياع والإستلاب والخسران.

فهل لنا أن نطرد آفات الخوف وننتصر على إرادة العدوان؟!!

ومعذرة على إستعمال بعض العبارات باللهجة العراقية الدارجة

إرتباط كامل النص:
http://www.arabpsynet.com/Samarrai/DocSamarraiWaMaSawahaa401-260226.pdf

**** **** ****

شبكة العلوم النفسية العربية

رقيا بعلوم وطب النفس، لصحة نفسانية افضل

الموقع العلمي
http://www.arabpsynet.com/
المتجر الالكتروني
http://www.arabpsyfound.com

الكتاب السنوي 2026 لـ " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار التاسع عشر)

الشبكة تدخل عامها 26 من التأسيس و 24 على الويب

(التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13)
http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf